تاريخ الادبيات العربية

(تتمة ما سبق)

ولقد كنا نودّ ان نستقري هذا الكتاب الى آخرهِ ونتابع الكلام على كل ما يتفق لنا العثور عليهِ من الاوهام ولكننا لم نملك من الوقت ما يتسع لذلك لان الكتاب يقع فيما يزيد على ٤٠٠ صفحة فتخطينا القديم الى الحديث لنقف على موضع كلامهِ من وصف الحقائق العصرية . على ان الذي يؤخذ من مقدّمة المؤلف انهُ لم يعتمد في هذا الفصل الاخير على شيء من التاليف التي سبقت كتابهُ فهو مما انفرد فيهِ بنفسهِ وقد يكون استعان ببعض المكاتبين من اخوانهِ في هذه الآفاق وعلى كل حال فالفصل لا يخرج عن كونهِ تأليفاً فرنسويًّا محضاً . . .

وهذا الفصل مخصوصٌ بمن جاء من الادباء في القرن التاسع عشر على ما تقدمت الاشارة الى ذلك في صدر هذا المقال . وقد ذكر جماعةً منهم ممن كان لهم اتصالٌ بالحملة الفرنسوية المشهورة في مصر في اوائل القرن المذكور كميخائيل الصبّاغ واليوس بقطر ونقولا الترك وقد ذكر عن هذا الاخير (ص ٤٠٦) أن الامير بشيراً الشهابيّ اوفدهُ الى مصر ليتجسس لهُ مقاصد الفرنسيس (كذا) . ومما ذكرهُ في هذا الموضع ان الامير بشيراً المشار اليهِ كان درزيًّا وما نحسب هذا القول منهُ الا رجماً بالغيب فان الرجل كان مسيحيًّا كسائر أُسرتهِ وذراريّهِ الباقية الى اليوم في جبل لبنان . على ان هذه العشيرة ليس فيها درزيٌّ ولم تكن قطّ من الدروز وانما هي في

الاصل عشيرةٌ مسلمة كما يُعلَم ممن بقي منها على دين الاسلام في وادي التيم

ثم انتقل الى ذكر المرحوم والد صاحب هذه المجلة (ص ٤٠٧) فخبط في الكلام عليهِ خبطاً عجيباً حتى لم يكد يذكر عنهُ شيئاً صحيحاً . فاول ما ذكر انهُ توفي في ٥ فبراير سنة ١٨٧١ والصحيح ان وفاتهُ كانت في ٨ منهُ . ثم ذكر انهُ كان استاذاً يدرّس عند مرسلي الاميركان في بيروت والآخر ايضاً غير صحيح فانهُ كان يصحح كتبهم وعلى الخصوص تعريب الاسفار المقدسة من كتب العهدين على ما هو مشهور . وانتقل بعد ذلك الى سرد مؤلفاتهِ فذكر انهُ الف مجموع نُخَب شعرية سماهُ مجموع الادب وكأنهُ اخذ ذلك من معنى تسمية الكتاب فتوهم انهُ مجموع نخب شعرية او مقالات ادبية وانما هو اسمٌ جامع لكتابي عقد الجمان في علم البيان ونقطة الدائرة في علمي العروض والقافية . ثم ذكر كتابهُ العرف الطيّب في شرح ديوان ابي الطيّب وهو شرح ديوان المتنبي المشهور وذكر هناك ما يستفاد منهُ ان هذا من مؤلفاتهِ التي سبقت تأليف مقاماتهِ المعروفة بمجمع البحرين والصحيح ان هذا الكتاب لم يظهر الا بعد وفاتهِ بخمس عشرة سنة وكان رحمهُ الله قد شرع في تأليفهِ فعلق اشياء على بعض مشكل ابياتهِ وغامضها وبعد وفاتهِ اتمهُ كاتب هذه السطور كما تجد ذلك صريحاً في تذييل الكتاب . وذكر بعد ذلك كتاب عقد الجمان المشار اليهِ قُبَيل هذا فقال انهُ في علم العَرُوض وقد قدّمنا انهُ في علم البيان . ثم ذكر من مؤلفاتهِ الكتاب المسمى باللامعة في شرح الجامعة وهي ارجوزة مطوّلة في علمي العروض والقافيـة وانما الشرح للمرحوم حبيب شقيق صاحب هذه المجلة والذي للمرحوم الوالد هو

المتن اي الارجوزة . ونسب اليهِ الكتاب المسمى بعقود الدُرَر في شرح شواهد المختصر وهو الشرح الذي وضعهُ حضرة الاستاذ شاهين افندي عطية لابيات الشواهد الواردة في مختصر نار القرى لصاحب هذه المجلة . على انهُ ذكر قبل ذلك كتاب نار القرى ولم يبيّن ما هو ولا عرَّف المختصر . وذكر من دواوينهِ النبذة الاولى وثالث القمرين ولم يذكر نفحة الريحان مع ان في تسمية ثالث القمرين ما يشير اليها

وذكر بعد ذلك (ص ٤٠٩) المرحوم المعلم بطرس البستاني فقال ان من مؤلفاتهِ محيط المحيط وهو تذييل او تكملة لقاموس الفيروزابادي قال وقد استعان بهِ دُوزي في تأليف معجمهِ الذي جعله تُكملة المعجمات العربية[١] (راجع انتقادنا لهذا الكتاب في مجلة الطبيب تحت العنوان المذكور) . وانما محيط المحيط معجمٌ كامل للُّغة ضمَّنهُ كل ما في قاموس الفيروزابادي وزاد عليهِ ما وصلت اليهِ يدهُ من غيرهِ فجآء اوسع منهُ كثيراً ولذلك سماهُ محيط المحيط

ثم ذكر المطران يوسف الدبس (ص ٤١٢) فزعم انهُ نظم اشعاراً عاميّة اي تتناشدها العامّة وهو ما لم نسمع بهِ من غيرهِ . وذكر بعدهُ المرحوم نقولا النقاش فقال انهُ وُلد في صيدا سنة ١٨١٧ وتوفي في طرسوس

---

(١) دوزي رجل هولندي من مشاهير علمآء المشرقيات ولد في ليدن سنة ١٨٢٠ وتوفي سنة ١٨٨٢ وكان معظم اشتغالهِ بالعربية ولهُ فيها تصانيف اشهرها كتاب الملابس عند العرب والمعجم المشار اليهِ هنا ذكر فيهِ كل ما لم يجد لهُ ذكراً في المعجمات العربية وهو كتابٌ كبير يقع فيما ينيف على ١٧٠٠ صفحة

سنة ١٨٥٥ وانهُ ألّف كتاب ارزة لبنان تخلط بين المرحوم نقولا النقاش واخيهِ المرحوم مارون . وذكر بعد ذلك (ص ٤٣٢) مجلة انيس الجليس وفسّر انيس الجليس بالرفيق الامين (Le Compagnon fidèle) ونسبها الى السيّدتين الكسندرا افيرينو ولبيبة هاشم وهو عجيب مع ظهور هذه المجلة كل شهر وفي صدرها اسم صاحبتها بالعربية وعلى الجانب الآخر اسمها بالفرنسوية ...

وقد بقي هناك اشياء أُخر اجتزأنا عن ذكرها خوف الملل وفي مأمولنا ان المؤلف اذا وقف على هذه المآخذ وجد من حرصهِ على تقرير الحقائق ما يدعوهُ الى تلقيها بالصدر الرحب وينبّهُهُ الى مراجعة رأيهِ في سائر الكتاب وفي رأينا انهُ لا غضاضة عليهِ ان يستعين باحد ابناء هذه اللغة في تسديد ما يكتبهُ عن ذويها فان صاحب البيت ادرى بما فيهِ والله الهادي الى سواء السبيل

ذكرى الهند

(تابع لما قبل)

وبعد ان اقمنا في بمباي اياماً ركبنا القطار الحديدي فسرنا الى بونا المشهورة بطيب هوائها فبتنا فيها ليلةً ثم سرنا منها الى حيدر اباد الدكن . ومن غريب ما شاهدناهُ في طريقنا بعد خروجنا منها اننا رأينا فلّاحاً يحرث الارض بثمانية ثيران والسكة واحدة . وبلغنا حيدر اباد في مساء الغد فاقمت هناك اياماً قضيت فيها عدة زيارات وكان ممن زرتهم ناظر المالية السيد علي بلكرامي الرجل الشهير بالمعارف في الهند فهو يعرف السنسكريتية والفارسية

واللاتينية والعربية والفرنسوية والتركية والهندية والانكليزية . وقد منحتهُ الدولة الانكليزية لقب شمس العلمآء وذهب في هذه السنة من قِبَل نظام المُلك الى مؤتمر المستشرقين الذي التأم في رومية . وفي قصرهِ مكتبة نفيسة تحوي الوفاً من المجلدات وقد ترجم من الفرنسوية الى الاردوية كتاب آداب العرب وذكر لنا انهُ درس اللاتينية على القس لويس الصابونجي في مدينة لندرا . ولهُ من العمر الآن زهآء خمسين سنة وهو لطيف المعاشرة

وفي هذه المدينة حديقة عمومية زرناها فوجدنا فيها كل ما يروق البصر ولا سيما الورود والرياحين المرتبة ترتيباً بديعاً والخضَر هناك والورود دائمة على مدار السنة ويمكن الزائر ان يطوف الحديقة كلها وهو راكبٌ عربةً ذات رأسين من الخيل . وفي احدى جهاتها حُجَر واقفاص للحيوانات المفترسة كالاسد والدب والضبع والخنزير والحية الكبرى وكذا للحيوانات الاليفة والطيور

ومما زرناهُ في حيدر اباد دار الضرب فارانا قيّمها جميع الآلات وضرب امامنا بعض القطع ويمكن ان يُضرَب يومياً زُهآء عشرين الف روبية . والفضة تُجلَب كلها من انكلترا اذ لا منجم للفضة في المملكة بل فيها منجم ذهب . وارانا ايضاً مطبعة الاوراق الرسمية للبريد والصكوك واوراق الحكومة بانواعها وهي متقنة يتولى ادارتها شاب انكليزي

وزرنا هناك المدرسة الملكية وحضرنا فيها درس الكيميآء وكان المدرّس انكليزياً والطلبة كلهم من الفُرس والهنود من وثنيين ومسيحيين . وكان في جملة السامعين عشر بنات وهنّ بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة من العمر

ولم نكن لنصدق ان في الهند هذه الرغبة في العلم لو لم نَرَ ذلك رأي العين .
وبعد ذلك طفنا على بقية معاهد المدرسة فشاهدت جميع الاساتذة يلقون الدروس على الطلبة وبينهم ثلاث معلمات يدرّسنَ الصغار ومدرّس للغة العربية . وفي المدرسة المذكورة خمسة وعشرون طالباً يقيمون فيها وهم منتقَون من اكابر القوم ونفقتهم من الملك . واللغة الاساسية في هذه المدرسة الانكليزية ثم الاردوية والفارسية والعربية والدروس العلمية تلقى كلها بالانكليزية

وبعد ذلك ذهبنا لزيارة القلعة القديمة لملوك حيدر اباد وقبور سلاطين الاسلام الاولين وهي على بعد ستة اميال من المدينة وتسمى كول كندا . وهي قائمة على قمة جبل شامخ يشرف على المدينة وعلى ما حولهُ من الجبال والهضاب والسهول الى مدى بعيد الا ان اكثرها خراب وقد بقي منها اروقة جميلة تدلّ على جمال اصلها وحجرتان في اعلاها واما القصر الذي كان فيها فلم يبقَ منهُ الا رسوم وبعض اعمدة . ورأينا عدة مدافع ملقاة في ساحات القلعة قرأنا على بعضها هذه الكلمات « نظام علي خان بهادر سنة ١١٩٣ » . اما القلعة فلم نقف فيها على كتابات مع ما كانت عليه من العظمة والفخامة والظاهر ان ما كان فيها من الكتابة قد دُرِس فيما درستهُ منها الايام

وفي قمة القلعة شجرة ضخمة من الاشجار المقدسة عند الهنود يزورها عبَدة الاوثان منهم الى هذا اليوم ويقدمون امامها البخور والذبائح . وفي صحن دار القصر حوض طولهُ نحو ثلاثين متراً في عرض عشرين وعمق

ثمانية يزعم الهنود ان هذا الحوض كان يُملأ بماء الورد فينزل الملك في قارب ويجول فيه

وعلى مسافة ميلين من القلعة قبور سلاطين المغول وغيرهم وعليها قباب شامخة الارتفاع ذات هندسة بديعة وقد قرأنا على احد القبور ما صورتهُ « هذا قبر الحرة الفاضلة ام عبدالله مولاة السلطان الاجل يحيى بن السداد الموفق الثغري الاسلامي توفيت في آخر رمضان سنة ٥٦٣ »

ومدينة حيدر اباد مؤلفة من اربع محلّات (جمع محلّة) وهي اسكندر اباد وتومكري وبولارم وحيدر اباد ويطلق على الكل حيدر اباد من باب تسمية الكل باسم البعض. وسكان هذه المحلات يبلغون زهاء خمس مئة الف نسمة منهم ثلاث مئة الف مسلمون واكثرهم على مذهب السُّنَّة والباقون من الهنود الوثنيين والفرس عَبَدة النار والشمس واما المسيحيون فلا يزيدون على الفي نفس

والعسكر الوطني مؤلف من المسلمين والهنود والمسيحيين . وفي كل مدرسة ضابط او اثنان تعينهما الحكومة لتعليم فن العسكرية للطلبة باجمعهم حتى الصغار . وفي المدينة فرقة من الخيالة تطوف الازقة والشوارع كل حين وفي ايديهم المزاريق للمحافظة على الراحة العمومية

وقد زرنا يوماً المكتبة الملكية فرأينا فيها كثيراً من دواوين عربية وفارسية وكتب دينية اسلامية منها بخط اليد ومنها مطبوعة وفيها شيء كثير باللغة الانكليزية وابواب هذه المكتبة مفتوحة ليلاً ونهاراً لمن شاء المطالعة في الكتب او الجرائد المحلية او الاجنبية

ولبثنا في حيدر اباد الى اليوم الخامس من كانون الاول وفي السادس منهُ ركبنا القطار قاصدين كلكتّا فقطعنا بلاداً واسعة كلها مخصبة خضرآء كثيرة الاحراج والمزارع والمياه الى ان بلغنا كلكتا بعد ٤٨ ساعة فنزلنا من القطار وسرنا الى دار رئيس اساقفة كلكتا السيد بولس غولتاز. فجزنا فوق جسر حديدي امام المدينة طولهُ ١٢٤٠ قدماً انكليزية او ما يقرب من ٤٠٠ متر ويُفتَح هذا الجسر لمرور البواخر البحرية الكبرى ولمرور القطار الحديدي من جانبهِ الشرقي

وبعد ان اقمنا بهذه المدينة اياماً زرنا مها راجا تاكور (والراجا اسمٌ كانت تلقب بهِ ملوك الهند قبل استيلاَء الانكليز على البلاد) ولما بلغنا القصر اذا جنديان شاكيا السلاح واقفان على باب القصر ولكل راجا انعام من لدن الحكومة الانكليزية ان يتخذ خمسة وعشرين جنديًّا لحراستهِ. وفي مدخل القصر غرفة معلق على جدرانها مئات من السيوف والمكاحل (البواريد) والخناجر والتروس. ثم رقينا الدَرَج فلما بلغنا اعلاهُ استقبلنا ابنهُ الاكبر فمشى امامنا حتى افضى بنا الى ردهة فسيحة مفروشة بالرياش الثمين والاخشاب الهندية البديعة الصنعة. وهناك تلقانا الراجا فوجدنا فيهِ انساً ولطفاً وعلماً وهو مولع بفنّ الموسيقى وقد الّف فيهِ كتاباً ضخماً وربط الغناَء الهندي بعلامات كعلامات الغناَء الاوربي

وفي كلكتا دارٌ للآثار والمعروضات وهي بناَءٌ فخيم من اعظم ابنية الهند واقع في اجمل مكان من المدينة وامامهُ الساحة العمومية. وقد ذهبنا لزيارتهِ فوجدنا فيهِ معارض لكل نوع من الحيوان من طير ودوابّ وهوام واسماك

بين حيّ ومحنَّط ورأينا فيهِ بعض هياكل الحيوانات المنقرضة . ومعارض اخرى للنبات والحبوب وغيرها للمعادن والاسلحة والاصنام الهندية ومعرضاً لصنائع الهند كالصياغة والنجارة والنساجة والتصوير وغير ذلك . وفي جملة المعروضات هناك تماثيل كبيرة تشخّص اصناف البشر بتركيبها وهيئاتها والوانها فترى القوقاسي والاوربي والهندي والصيني والافريقي والزنجي الاميركاني والاعرابي والكردي والتركي وكلها متقنة الصنع وعلى قدمي كل تمثال لوحٌ مكتوبٌ عليهِ اسم الجيل الذي هو منهُ . وقد رأينا جثة انسان محنَّطة أُتي بها من مصر وكذلك بعض عاديّات من آثار بابل مكتوبة بالحرف المسماري اي الاشوري

اما الاصنام المجموعة من اطراف الهند فكثيرة ومتنوعة لكن لا اتقان فيها وهي شنيعة المنظر لا تناسُب في تمثيل اعضائها بعضها من حجر سماقي وبعضها من حجر اسود او ابيض وبعضها من رخام

وفي مدة وجودنا هناك كان بعض النجارين من الصينيين والهنود يشتغلون في الدار المذكورة بصنع هيكل جسيم من الخشب يمثل معابد وثني الهند يبلغ ارتفاعهُ اثني عشر متراً عليهِ تصاوير بديعة ونقوش مجسَّمة وكان القصد منهُ ان يُرسَل الى معرض باريز الذي فُتح في ١٥ نيسان سنة ١٩٠٠

(ستأتي البقية)

من كلام الشاطبيّ اشتغالك بوقتٍ لم يأتِ تضييعٌ للوقت الذي انت فيهِ

اللحن الكتابيّ

(عودٌ على ما في الجزء السابق)

ذكرنا قبلاً ما يتعلق بهذا الفن وأبنّا طريقة اصطلاحهم في كتابة الرسائل القلمية وبقي الكلام في المراسلات البرقية وهي ترجع في الاكثر الى الطرائق المتقدمة. لكن لما كان كثيرٌ مما ذُكر كالشبكة والرسوم الرمزية لا سبيل الى استخدامهِ فيها لم يكن بدٌّ من حصر الاصطلاح في الحروف الهجآئية والارقام الهندية فتُجعَل الارقام مكان الحروف على نحو ما سبق في المراسلات القلمية او يوضع بعض الحروف مكان بعض على طريقةٍ يُتواطأ عليها بين الطرفين. وذلك بان تُرسَم الحروف في دائرتين متحدتي المركز احداها تُنسَق فيها الحروف على ترتيبها المتعارَف والثانية يُخالَف فيها في ترتيبها على غير قاعدةٍ ولا اصطلاحٍ معلوم كما ترى في الرسم. فان الحروف التي في الدائرة الخارجية مرتبة على النسق المعروف من الالف الى اليآء والتي في الدائرة الداخلية موزَّعة على ما اتفق من غير مراعاة ترتيب. وعند الكتابة يؤخذ عوض كل حرف من الدائرة الخارجية الحرف الذي يقابلهُ في الداخلية وهي طريقة واضحة سهلة الكتابة والحلّ مع وجود الرسم المتواطأ عليهِ عند الفريقين غير انهُ لا يؤمن والحالة هذه ان يُهتدَى الى اكتشاف السرّ في هذه

الطريقة وحينئذٍ فلا بدّ ان يُخالَف في استعمالها الى ما يضلّل فكر المكتشف ويسدّ عليهِ طريق الحلّ وذلك بان تُنقَل احدى الدائرتين عند كل حرف حتى يؤخذ عوض الحرف المقابل الحرف الذي يليهِ على ما سنوضحهُ . وقد اصطلحوا لذلك على ان تُرسَم كلٌّ من الدائرتين مستقلةً عن الاخرى بان يُقطَع قرصان من المقوَّى مستديران احدهما اكبر من الآخر وتُرسَم الحروف على محيط كلٍّ منهما بحسب ما ذُكر ثم يوضع الاصغر فوق الاكبر ويُغرَز نحو مسمار او دبّوس في الوسط بحيث يمكن ان يدار كلٌّ منهما وحدهُ وبذلك يسهل نقل كل حرفٍ من الدائرة الخارجية الى محاذاة كل حرفٍ من الداخلية . غير انهُ لا بد عند رسم الحرف الاول من الرسالة ان يؤخذ مقابلهُ بعينهِ حتى يكون مبدأ للحل ثم يقع النقل فيما يليهِ

وعليهِ فاذا شئنا ان نرسم كلمة « مصر » مثلاً عمدنا الى حرف الميم من الدائرة الخارجية في الرسم المتقدم ونظرنا ما يقابلهُ من الداخلية وهو الضاد فنأخذهُ بعينهِ . ثم نعمد الى الصاد فننقل الدائرة الخارجية حرفاً واحداً من اليمين الى الشمال كما يشير اليهِ السهم المرسوم بجانبها فتقع الصاد مقابلةً للتاء . ثم عند رسم الرآء ننقل الدائرة الخارجية حرفاً آخر فتقع مقابلةً للقاف فنكتب مصر هكذا « ض ت ق » او « ضتق » اي بوصل الاحرف للتمييز بين كلمة وكلمة عند الحلّ . واذا اردنا ان نرسم « مصر القـاهرة » كتبنا مصر كما سبق ثم تتبعنا بقية الحروف مع نقل الدائرة الخارجية عند كل حرف مسافة حرفٍ واحد فيأتي مجموع الكلمتين هكذا « ض ت ق ي غ ف ا ث ب ا » وقس على ذلك

وهناك اصطلاحٌ اسهل وهو ان تؤخذ الحروف على ترتيبها المعتاد لكن تُقسَم نصفين يُبدأ من ثانيهما فيعبّر عن الالف بالضاد وعن البآء بالطآء وهكذا الى الصاد المهملة فيعبَّر عنها باليآء ثم يعبَّر عن الضاد المعجمة بالالف وعن الطآء بالبآء وهلمَّ جرًّا. وهذه الطريقة لا يُحتاج فيها الى دوائر مرسومة ولكن يكفي ان تُكتَب الحروف سطراً مستقيماً ومتى عُرِف الحرف المقابل للألف منها يُجعَل مبدأً ثم تُتتبَّع بقية الحروف على ترتيبها

وتُستعمَل هذه الطريقة على وجهٍ آخر هو بنفس السهولة ولكنهُ صعب الحلّ وهو ان تُستخدَم عدة سلاسل للحروف الهجائية يختلف مبدأ كلٍّ منها تُبنَى على مفتاح مخصوص يتواطأ عليهِ المتراسلان . وذلك كأن يتّفقا على ان يكون مبدأ كل سلسلة حرفاً من كلمتي « كتاب الاغاني » مثلاً فيؤخذ الحرف الاول من سلسلة تُبدأ بالكاف والثاني من سلسلة تُبدأ بالتآء وهلمّ جرًّا واذا فرغت حروف المفتاح تُستأنَف مرةً اخرى على الترتيب نفسهِ . وعليهِ فاذا شئنا ان نرسم « مصر القاهرة » بمقتضى المفتاح المذكور جآء الرسم هكذا « ظ ط ر ب ل ض ا ط ر ك » واذا اردنا التعبير عن كلمتي المفتاح نفسهِ وهما « كتاب الاغاني » جآء رسمها هكذا « ص ج ا ت ا ظ ا ذ ا ق و »

ومن الناس من يتخذ طريقةً غير ما ذُكر وهي ان يتفق المتراسلان على كتابٍ معلوم من الكتب المشهورة وتُتفقّد في تضاعيفهِ الكلمات المراد التخاطب بها ثم يشار الى موضع كل كلمة بثلاثة ارقام يُدَلّ باحدها على الصفحة من الكتاب و بالثاني على السطر و بالثالث على الكلمة وهي اصعب

هذه الطرائق على الكاتب واشدّها غموضاً على من يريد اكتشافها

على ان اكثر الكتابات السرية تلغرافية كانت او غيرها يمكن حلها بعد ممارسة هذا الفن ومزاولة رموزهِ وذلك اما باكتشاف الطريقة التي اصطلح عليها المتكاتبان واما بالحدس فيها من طريقٍ آخر مما لا متَّسع للافاضة فيهِ هنا . وقد ذُكر انهُ في القرن السادس عشر كان زعمآء الاسپنيول يتراسلون بضربٍ من اللحن شديد الغموض يتألف من اكثر من خمسين علامةً كانوا يبدّلون مفتاحهُ حيناً بعد حين مغالطةً لمن يزاول اكتشافهُ وكان في فرنسا رجلٌ من علمآء الهندسة يقال لهُ ڤيات فكان يقرأ كل ما يقع في يدهِ من تلك المراسلات ويتتبع كل ما يطرأ فيها من التبديل حتى شاع بين رجال الحكومة في مدريد ان بلاط فرنسا يستخدم الشياطين

اما اللحن الكتابيّ عند العرب فكان قليل الاستعمال وما نُقل الينا منهُ لم يكن مبنيًّا على قاعدةٍ ولا سبق تواطؤ وانما كان ينوب فيهِ عن التواطؤ ذكآء الفطرة وحدّة الذهن . فمن ذلك ما حكي عن بعض الملوك انهُ عزم على قصد عدوٍّ لهُ فارسل رجلاً خبيراً يتجسس لهُ فلما دخل الرجل بلد العدوّ وجدهُ في غاية التحصن والقوّة وشعر بهِ الملك فقبض عليهِ وامرهُ ان يكتب كتاباً الى مرسلهِ يذكر لهُ انهُ وجد القوم ضعفآء ويطمعهُ فيهم ويزيّن لهُ الخروج من محلهِ وتهدّدهُ بالقتل ان لم يفعل فلم يستطع الا الامتثال فكتب اليهِ بما صورتهُ

اما بعد فقد احطت علماً بالقوم واصبحت مستريحاً من السعي في تعرُّف احوالهم واني قد استضعفتهم بالنسبة اليكم . وقد كنت اعهد من

اخلاق الملك المهلة في الامور والنظر في العاقبة ولكن ليس هذا وقت النظر في العاقبة فقد تحققت انكم الفئة الغالبة باذن الله وقد رأيت من احوال القوم ما يطيب بهِ قلب الملك نصحتُ فدَع ريبك ودَع مهلك والسلام

فلما انتهى الكتاب الى الملك قرأهُ على رجالهِ فطالت اعناقهم وقويت قلوبهم ثم ان الملك خلا بكبرآئهِ وقال اريد ان تتأملوا هذا الكتاب فاني شعرت منهُ بامر واني غير سائر حتى انظر في امري . فقال بعضهم ما الذي لحظ الملك في الكتاب فقال ان فلاناً من الرجال ذوي الحصافة والرأي وقد انكرت ظاهر لفظهِ فتأملت فحواهُ فوجدت في باطنهِ خلاف ما يوهم الظاهر . وذلك في قولهِ اصبحت مستريحاً من السعي فيريد انهُ محبوس . وقولهِ استضعفتهم بالنسبة اليكم يريد انهم ضعفنا لكثرتهم . وقولهِ انكم الفئة الغالبة باذن الله يشير الى قولهِ تعالى وكم فئةٍ قليلة غلبت فئةً كثيرةً باذن الله . وقولهِ رأيت من احوال القوم ما يطيب بهِ قلب الملك فاني تأملت ما بعدهُ فوجدت انهُ يريد بالقلب العكس لان الجملة الآتية مما يوهم ذلك فقلبت الجملة وهي قولهُ « نصحت فدع ريبك ودع مهلك » فاذا مقلوبها « كلُّهم عدوٌّ كبير عُدْ فتحصَّن » . اه

وكانوا احياناً يتلاحنون بالتصحيف وهو تبديل النقط في الخط ومن امثلة ذلك ما ذكرهُ صاحب نفح الطيب قال ان المعتمد مرّ مع وزيرهِ ابن عمار ببعض ارجآء اشبيلية فلقيتهما امرأة ذات حسن مفرط فكشفت وجهها وتكلمت بكلام لا يقتضيهِ الحيآء . وكان ذلك بموضع الجبّاسين الذين يصنعون الجِبس والجيّارين الصانعين للجير باشبيلية فالتفت المعتمد الى موضع

الجيّارين وقال يا ابن عمّار الجيّارين . ففهم مرادهُ وقال في الحال يا مولاي والجبّاسين . فلم يفهم الحاضرون المراد وتحيروا فسألوا ابن عمّار فقال لهُ المعتمد لاتبعها منهم الاغالية . وذلك ان المعتمد صحّف «الحيا زين» بقولهِ «الجيّارين» اشارةً الى ان تلك المرأة لو كان لها حياء لازدانت فقال لهُ « والجباسين » وتصحيفهُ « والخنا شين » اي هي وان كانت جميلة لكن الخنا شانها وهذا شأوٌ لا يُلحَق . اه

وربما استعملوا اللحن في غير لفظٍ ولا خطّ وذلك كما جآء في ديوان الصبابة لابن ابي حجلة قال ومن احسن ما سمعتهُ في الرسائل والتلطف في الوسائل ما حُكي عن الملك العزيز ابن السلطان صلاح الدين انهُ كان في ايام ابيهِ احبّ قينةً وشُغف بها فبلغ صلاح الدين فمنعهُ من صحبتها ومنعها منهُ ومضى على ذلك مدة ايام فسيّرت اليهِ مع خادم كُرَة عنبر فكسرها فوجد فيها زرّ ذهب فلم يفهم مرادها وجآء القاضي الفاضل فعرّفهُ الصورة فقال في الحال

اهدت لك العنبر في وسطهِ زرٌّ من التبر دقيق اللحامْ

فالزرُّ في العنبر تفسيرهُ زُرْ هكذا مستتراً في الظلامْ

اه . واخذ قولهُ « زُرْ » من اسم الزرّ ومعنى الظلام من لون العنبر . ومن تفقد كتب الادب وجد غير ما ذكر ولكنا اقتصرنا على هذا القدر حب الاختصار

⁂

التسمم بملح الطعام

نشر بعض الاميركان منذ مدة ان الاكثار من الملح يعصم من الامراض ويكون سبباً في تقوية الدم واطالة الحياة وقد شاع هذا القول وتناقلتهُ الجرائد والمجلات وربما اغترّ بهِ بعض الحِراص على الحياة فاخذ يستفّ الملح استفافاً. وقد وردتنا عدة اسئلة في استثبات هذا الامر فرأينا افضل جوابٍ على ذلك ان نعرّب فصلاً قرأناهُ في احدى المجلات العلمية للدكتور مُنار قال

ان اسلم الاطعمة في بادي الرأي قد يكون مؤذياً لبعض اجزاء البنية كما ان من الموادّ التي اشتهر انها من اقتل السموم ما لا تتمّ وظائفها بدونهِ . فان الزرنيخ مثلاً على ما أثبتهُ المسيو أرمان جُوتيّاي يدخل في تركيب بعض كُرَيّات الجسم دخولاً بنآئيّاً فيوجد في كُرَيّات البشرة والشعر ويتجمع على الخصوص في الغُدّة الدرقية . وهو كثير الانتشار في الطبيعة ويمكن ان يُستخرَج من بعض الخضراوات ولا سيما الكرنب . وعلى الجملة فان هذا السمّ الذُعاف لا يخلو منهُ غذآؤنا اليومي ولكن المقدار الذي يدخل اجسامنا منهُ لازمٌ لقيام انسجة البنية بما لا يقلّ لزوماً عما يدخلها من بعض الاملاح المعدنية

على ان الزرنيخ الذي يخالط الاطعمة انما يدخل البنية اجزآءً من الف من الميلِغرام وهو اذا لم يتجاوز بضعة ميلغرامات كان في جملة الادوية ولكنهُ اذا بلغ بضعة سنتغرامات لم يؤمن خطرهُ . وكذلك الاملاح المعدنية المذكورة فانهُ مع ما يسبق الى الذهن من صلاحيتها اذا كثرت مخالطتها

للغذآء اليومي الى حدّ الافراط لم تكن سليمة العاقبة

واشهر ما يمثَّل بهِ على ذلك ملح الطعام او كلورور الصوديوم فانهُ ما زال في كل زمنٍ يُعَدّ من الموادّ التي لا بدّ منها للغذآء وليس من امةٍ في الارض الا تستعملهُ حتى ان سكان اواسط افريقيا يبتاعونهُ باغلى الاثمان ويأتيهم محمولاً مع القوافل لخلوّ تلك الارض منهُ . ومع ذلك فانهُ قد يكون من السموم لبعض انسجة الجسم بل للجسم كلهِ اذا أُفرِط في استعمالهِ الى ما وراء الاعتدال

ولبيان ذلك نقول ان الاطبآء اخذوا منذ بضع سنين يعالجون المصابين بفقر الدم بمحلول ملح الطعام في المآء المقطر وهو المعروف بالمصل الصناعي يحقنونهُ تحت الجلد بقصد التقوية فكان لهذا الحقن فائدة لا تُنكر لكن وُجد انهُ احياناً يُحدِث تورُّماً . ثم ان التورُّم الذي يصحب علل الكليتين و بعض العلل القلبية يُعالَج عادةً باللبن مع المنع عن سائر انواع الاطعمة وقد علُم ان هذا العلاج انما يفيد لانهُ بقَصر العليل على اللبن وحدهُ يُصرَف عنهُ جانبٌ كبير من الملح الذي يخالط الموادّ الغذآئية لا لأن في اللبن خاصيّةً تمنع ارتشاح مصل الدم الذي يحدث التورم عنهُ اذ قد ثبت بالتجربة انهُ لو أُعطِي العليل عوض اللبن طعاماً آخر خالياً من الملح سوآء كان من اللحم او الخضراوات او الخبز لحصل النفع عينهُ واذا اعطي اللبن بعد ذلك مضافاً اليهِ عشرة غرامات من الملح في اليوم عاد الورم

وسبب التورم المذكور على ما ذكرهُ الدكتور آشار ان الملح اذا زاد عن المقدار اللازم للبنيـة او ضعفت الانسجة عن افراز الملح الواصل اليها

بجملته حتى يبقى جانبٌ منهُ مخزوناً فيها فان هذا الباقي منهُ يطلب المآء اللازم لحلّهِ على ما هو شأن جميع المواد المُختزَنة في الجسم ولا سيما الاملاح . وبقاء هذا الملح في خلال الانسجة لا يقتصر ضررهُ على امساك المآء في البنية ولكنهُ يؤذي الغشآء المستبطن للكليتين ايضاً كما ثبت ذلك بالامتحان في الحيوانات

جملة الامر ان الملح من المواد اللازمة للتغذية فقد وُجِد بالاختبار ان الحيوانات اذا غُذِيت بخبزٍ لا ملح فيهِ عرض لها البول الآحيّ (الزلالي) لما يحدث بسبب ذلك من التمزُّق في الغشآء المذكور للكليتين وكذلك الانسان اذا تناول مقداراً كبيراً من الملح مُني بالامر نفسهِ اذا لم تكن الكليتان صحيحتين او لم يتمّ افراز الملح بجملتهِ وهذا هو السبب في ان اصحاب الاورام المشار اليها تفيدهم الاغذية التي لا ملح فيها لان انسجتهم يكون قد تجمع فيها ملحٌ كثير

هذا مجمل ما ثبت بالاختبار وبهِ علِم ان اسلم المواد الغذآئية الذي هو الملح مع كونهِ مما لا بدّ منهُ لقيام البنية فانهُ اذا جاوز الحدّ في المقدار كان سمّاً لا محالة . اه ببعض تصرُّف

فوائد

تقسية النحاس — كان الاوَّلون يعرفون طريقة لسقي النحاس وتقسيتهِ حتى تتخذ منهُ الاسلحة والآلات وهو المعروف في اصطلاح الصاغة بنحاس الجان ولكن سرّ تقسيتهِ لا يزال مكتوماً في صدر الايام وقد اجتهد اناس

من اهل الصناعة للوصول اليهِ فادركوا منهُ بعض الشيء ولكن لم يبلغوا غايتهُ

وقد قرأنا في هذه الايام في احدى المجلات العلمية ان بعض الالمان قد وُفّق الى طريقةٍ يقسّي بها النحاس الى مثل الغاية المذكورة . وذلك انهُ بعد ان يُصاغ منهُ الشيء المراد من آلةٍ او غيرها يُحمى على نار الفحم النباتي الى ان يبلغ درجةً عالية من الحرارة ثم يُذَرّ عليهِ وعلى الفحم المحيط بهِ مسحوق الكبريت حتى يتغطى كلاهما تماماً ولا ينبغي ان يُفعَل ذلك الا حين يبلغ المعدن معظم ما يحتملهُ من الحرارة . ثم يُترَك على النار حيناً ما الى ان تفعل فيهِ ابخرة الكبريت وبعد ذلك يُرفَع ويُغمَس وهو حارٌّ في مغطس من الشبّ الازرق (كبريتات النحاس) فيُترَك هناك هنيهةً ثم يُرَدّ الى النار فيُحمَى وبعد ذلك يُترَك الى ان يبرد من نفسهِ فيكون بالغاً اشدّ الصلابة . قيل ويبقى مع ذلك قابلاً للطرق والسحب

قالت وهذه الطريقة نفسها تُستعمَل في امزجة النحاس ايضاً ولا سيما النحاس الاصفر الممزوج بالقصدير فتتصلب كما يتصلب النحاس اهـ . قلنا فعسى ان يوجد في اهل الصناعة عندنا من ينشط لامتحان هـذا الامر وهو امتحان سهل لا يكلف عناءً ولا نفقةً فانهُ ان صحّ كان عنهُ ولا ريب فوائد لا تُنكَر

رزآن كبيران

كان هذا الشهر على القطر المصري شهراً خيمت فيهِ ظُلم الاحزان واستطارت انباؤهُ الى سائر الاقطار العربية بما انقبضت لهُ الصدور واستكّت

الآذان تقوّض فيهِ ركنان من اعظم اركان الفخر والوطنيّة بل هوى فيهِ كوكبان طالما سطعت اشعتّهما في سمآء الفضل والانسانية احدهما المرحوم محمود باشا سامي البارودي متنبي هذا العصر ورئيس ديوان البلاغة في فنّي النظم والنثر بل الوزير الذي طالما جمعت يداهُ بين الصوارم والاقلام وجمعت اقلامهُ بين تصريف الاحكام وتثقيف الاحلام قضى رحمهُ الله في الثالث عشر من هذا الشهر عن سبع وستين سنة كانت حرباً سجالاً بينهُ وبين الدهر الى ان طوتهُ حفرتهُ وذكرهُ حيٌّ بين الافواه والاسماع واقوالهُ متناقلة على أَسَلات الألسنة واطراف اليراع

والثاني المرحوم احمد باشا المنشاوي صاحب المبرّات التي عمّت جوانب القُطر وفكّت عن المعوزين من اهلهِ أغلال العُسر وفاضت يداهُ على معاهد العلم والصناعة بما لاينقطع مَعِينهُ على تمادي الايام وما يستدرّ المراحم على تلك النفس الكريمة ما توالت العصور والاعوام وقد لبّى دعوة ربّهِ في التاسع عشر من الشهر وهو في حدود السبعين من العمر فذهب مزوّداً بالقلوب والاكباد مشيعاً باماني قوم قد ضرب القنوط وراءها بالأسداد على حين كان من همّهِ ان يبني مدرسةً جامعة تنهض بالوطن الى قمّة الفلاح لو لم يعاجلهُ القَدَر الذي قضى على الشرق ان لا يُراش لهُ جناح فاستقبل وجه البقآء تاركاً لاغنياء البلاد بعدَه ان يفعلوا كلهم ما فعلهُ هو وحدَه جزاهُ الله من واسع فضلهِ ما يكون كِفاء احسانهِ وعوّض القطر من هذين الراحلين خيراً وجعل مقرّهما نعيم جنانهِ

*

فكاهات

الكولونيل جيرار (١)

— ٦ —

وعاد الكولونيل جيرار الى حديثهِ في الجيش فقال

قد اخبرتكم كثيراً من الحوادث التي حصلت لي ولكن لا اظنني قصصت عليكم كيفية التحاقي بفرقة الهوسار وما اجريتهُ في ذلك الحين في حصار سيراقوسة فاذا لم اتلُ عليكم هذه القصة فكأنني لم اخبركم شيئاً فاسمعوا لي باصغآء لانهُ لا يوجد من يعرف هذا التاريخ الا اثنان او ثلاثة من اصدقآئي

كنت في بدآءة امري ملازماً اول في فرقة شمبران وكان لي من العمر خمس وعشرون سنة ولكن كان لي قلبٌ لا يهاب الموت ونفس لاتعرف الخوف . وحدث ان هدأت الحرب التي كنا فيها في المانيا وكانت لا تزال تهيج براكينها في اسبانيا فاراد الامبراطور ان يرسل نجدةً الى ساحة القتال فرقاني الى رتبة قائد مئةٍ وامرني بالالحاق بفرقة الهوسار وكانت في ذلك الحين تابعة لكتيبة الجيش الخامسة تحت قيادة المارشال لانّ . فلما تلقيت اوامر الامبراطور امتطيت صهوة جوادي في برلين ووجهت رأسهُ جهة البيريني فلم اضيّع ساعةً سدى وجعلت اصل السير بالسرى حتى بلغت جيش المارشال لانّ وهو محاصر مدينة سيراقوسة ودخلت معسكر فرقة الهوسار التي تعينت فيها . وقد كانت حالة الحصار هناك من اصعب ما يتصور لان المدينة كانت مشحونة بالاسبانيول من جنود وكهنة وغيرهم وقد صمموا جميعهم على ان يتجرعوا كؤوس الموت ولا يسلموا، ولم تكن المدينة ذات سور او حصن واحد

(١) بقلم نسيب افندي المشعلاني

بل كانت جميع مساكنها واديارها قلاعاً منيعة وحصوناً راسية ضخمة الجدران كأنها الباستيل فلم يكن لنا بدّ ان نحاصر كل بيتٍ على حدةٍ

ولما كانت الفرسان قليلة الفائدة في اوقات الحصار فقد كانت فرقة الهوسار موكلة بحراسة جنوبي المدينة لتمنع وصول نجدات الاسبانيول اليها . اما كولونيل تلك الفرقة فلم يكن جندياً مدرباً كما يجب ولذلك كانت الفرقة مختلة النظام ولم يكن فيها شيء من الترتيب والجمال والابهة التي صارت اليها بعد ما توليت قيادتها انا . وفي مساء وصولي تناولت العشآء مع ضباط الفرقة وكانوا ستة وعشرين ضابطاً فلم اتمالك ان كلمتهم بحرّية وانتقدت عدم تدريبهم وذكرت لهم البون الشاسع بين نظامهم ونظام الفرقة التي تركتها في المانيا . ومعلوم ان الحقيقة تجرح فلما سمعوا ذلك مني ظهر على وجوههم الغيظ ورأيتهم يتغامزون عليَّ ولا سيما الكولونيل وضابطٌ آخر يقال لهُ اوليڤياي كانوا يدعونهُ جليات الفرقة . ولما فرغنا من الطعام قام الكولونيل وبعض الضباط الى غرفةٍ اخرى وبقي منا نحو الاثني عشر وكان امامنا قربة من الخمر الاسبانيولية فجلسنا نشرب ونتسامر وكان الضابط اوليڤياي يسألني عن الجنود في المانيا وعن اعمالي حين كنت هناك . فلما رأيت منهم الاصغآء التام دفعتني الحماسة مع ما دار في رأسي من نشوة الشراب فجعلت اقص عليهم ما قمت به من الاعمال المجيدة التي فعلتها مما برهن لهم انني امهر من امتشق حساماً وانني لا اُبارَى في ركوب الخيل ولا اعرف للخوف معنى . وكنت مستغرقاً في الحديث فلم اشاهد لاول وهلة ما ارتسم على اوجه رفاقي من العلامات التي دلتني على انهم لم يكونوا يجهلونني فقط ولكنهم صاروا يكرهونني كراهةً شديدة . وكان يجب عليَّ اذ ذاك ان اعرّفهم بنفسي انني لست ضابطاً كالضباط بل انني جيرار الشهير بطل راتسبون وفاتح جينا ومشتّت شمل المربّع في استرلتز ولكنني لم اشأ ان امدح نفسي امامهم بهذه الصراحة بل جعلت اتلو عليهم من اخبار وقائعي ما يجعلهم يعرفون تلك الحقيقة بانفسهم واخبرتهم عن قيادتي الجيش وقت عبور نهر الدانوب . وما بلغت هذا الحد حتى قهقهوا جميعاً بضحك اصمَّ اذنيَّ ثم التفت اوليڤياي الى ضابط آخر وقال لهُ

سائلاً هل في معلومك ان المارشال لانّ باقٍ في المعسكر . قال اظنهُ باقياً فيهِ . فقال اوليڤياي يا للعجب واي لزوم لبقآئهِ هنا بعد وصول حضرة الملازم جيرار . فاجابهُ الجميع بضحك عالٍ اوقد فيَّ نار الحدة والانفة فوقفت امامهم كمثال الانتقام ثم التفتُّ الى اوليڤياي فقلت هل لك ان تخبرني يا سيدي في اية ساعة يتم عرض الفرقة كل صباح . فقال هازئاً عسى ان لا يكون في فكرك ان تغير اوقاتنا عما هي يا حضرة الملازم جيرار . فقابلهُ الجميع بضحك الاستحسان ولكنهُ لم يطل ضحكهم عند ما رأوا هيئتي الجدّيّة . فحولت نظري الى ضابطٍ آخر وسألتهُ نفس السؤال وكأنهُ اراد ان يجيبني بسخريةٍ اخرى فمنعهُ ما رآهُ في وجهي وقال في الساعة السادسة ايها الرفيق . فشكرتهُ بلطف وقد جال في خاطري ان انازلهم جميعاً في الغد بعد الفراغ من العرض وعددتهم فوجدتهم اثني عشر ضابطاً فحدجتهم جميعاً بنظرٍ احدّ من نظر النسر وخاطبتهم قائلاً انني لا اكون فرنسويًّا ولا استحق الانضمام الى فرقتكم هذه ان لم احاسبكم افراداً واجمالاً على القحة والفظاظة التي قابلتموني بها كما انكم لا تكونون انتم فرنسويين ولا تستحقون ان تدعوا رجالاً اذا رفضتم طلبي . فقال اوليڤياي لابد من اجابتك يا هذا فانا مستعد لمبارزتك عن نفسي و باسم ضباط الهوسار الموجودين هنا . فقلت اشكرك يا مولاي ولكن لابد من مناقشة الحساب لهؤلآء الباقين ايضاً الذين كان لهم النصيب الاكبر في الازدرآء بي فلابد من مبارزة الجميع ليؤدي كل واحدٍ حساباً عن نفسهِ . ولما قلت هذا بدت علامات التبسم على وجوههم ثم انزووا الى جانب الغرفة فسمعتهم يتكلمون فيما بينهم كلاماً لم استوضحهُ ثم عادوا اليَّ فقال اوليڤياي قد اتفقنا على اعطآئك سؤلك وتركنا لك الخيار في تعيين السلاح ووقت المبارزة وسائر شروطها . قلت اما المبارزة فبالسيف واما الوقت ففي الساعة الخامسة من صباح الغد واخصص لكل منكم خمس دقائق فلا تصير الساعة السادسة حتى اكون قد انهيت عملي معكم في الوقت الموافق لميعاد العرض . واما مكان المبارزة فاتركهُ لكم فانني لا ازال غريباً عن هذه الديار لا اعرف الامكنة الموافقة فيها . وكانت كلماتي الصادرة عن تأثرٍ وبرود قد نبهتهم الى ان جيرار لم يكن لعبةً في ايديهم

فامسكوا عن الضحك و بانت عليهم دلائل الاهتمام . فقال اوليفياي ان في آخر هذا الشارع حديقة مسوَّرة غير مطروقة كثيراً واظنها في غاية الملاءمة فغداً في الساعة الخامسة صباحاً ننتظرك فيها يا حضرة الرفيق . فحاولت ان اجيبهُ شاكراً واخبرهُ انهم سيأتون لموافاتي لا لانتظاري ولكن قبل ان انطق باول كلمة فُتح باب الغرفة فجأة وظهر منهُ الكولونيل مذعوراً مصفرًا فقال ايها الشجعان يلزمني من بينكم متطوعٌ ارسلهُ في مهمة سرية محفوفة باشد الاخطار الممكنة فمن يتطوع منكم لاقتحام هذا الخطر بشرط ان لا يكون متزوجاً . وما اتم كلامهُ حتى تقدم كل الضباط غير المتزوجين فنظر اليهم الكولونيل بحيرةٍ لم تخفَ عليَّ لانني قرأت افكارهُ فعلمت انهُ يود ارسال اهم واحدٍ فيهم وفي نفس الوقت يود ابقاء الاهم فيهم بقربهِ . فنهضت اذ ذاك وقلت اسمح لي يا مولاي ان اقدم نفسي لهذه المهمة فانها حقٌّ لي لانني الاقدم بين قواد المئة في الفرقة وانا اولى بها من غيري لانني لا ازال غريباً عنكم ولا يهم الفرقة غيابي . فانفرجت اسرَّة الكولونيل وقال متبسماً لقد اصبت كبد الحقيقة يا عزيزي جيرار فتعالَ معي لاعطيك المعلومات اللازمة . وقبل ان اخرج نظرت الى الضباط وقلت لهم انني لا ازال على وعدي من مقابلتهم في الصباح ثم خرجت وقد رأيت في وجوههم تغيراً يدل على انهم ابتدأوا يقدرونني حق قدري . وخرج الكولونيل فسار امامي وانا اتبعهُ حتى اجتزنا المعسكر ولم نزل سائرين مسافة طويلة حتى بلغنا آخر الحدود الواقف فيها حرس فرقتنا فقادني الكولونيل الى منزلٍ قد تهدمت بعض جدرانهِ ثم رقي بي الى سطحهِ فوجدت امامنا رجلين بين يديهما طبلٌ عليهِ خريطة كبيرة وهما جاثيان امامها يفحصانها على نور مصباح ضعيف . وكان احدهما حليق اللحية مدمج العضل عرفتهُ للحال انهُ المارشال لانّ اما الآخر فكان الجنرال رازو رئيس المهندسين . فلما صرنا امامهما قال الكولونيل مخاطباً المارشال قد تطوَّع القائد جيرار لقضاء المهمة التي تريدها يا مولاي وها هو . فانتصب المارشال باسماً ثم اخذ يدي مصافحاً وقال اهنئك ايها الصديق على شجاعتك وهمتك ودليلاً على معرفتي قدر هذه الشجاعة فيك اهدي لك هذه الزجاجة المحتوية على سائلٍ اذا

شربت منهُ نقطة واحدة تموت للحال وربما يلزمك في السفرة التي سأوجهك فيها .
ولم تكن هذه التحية مما انتظر سماعهُ فشعرت برجفةٍ في اعضآئي وان شعري قد وقف على رأسي ولكنني تجلدت وقلت اسمح لي يا مولاي ببيان المهمة التي تروم مني قضآءها لانني لم اعلم ما هي بعد . فدهش المارشال وقال للكولونيل وكيف اتيت بهِ اذاً وهو يجهل ما يطلب منهُ والمخاطر التي تهدد حياتهُ . فقاطعتهُ قائلاً انهُ مهما عظمت الاخطار عظم المجد والشرف فلا ارجع عن تطوعي الا اذا رأيت رسالتي سهلةً لاخطر فيها . فنظر اليَّ نظرةً دلت على اعتبارهِ العظيم لي وتقديرهِ شجاعتي ثم التفت الى الجنرال رازو وقال لهُ تكرم باعلام جيرار ما يطلب منهُ . فنهض الجنرال وقادني بيدي الى الباب ثم اشار الى سورٍ بعيد وقال هذا السور هو خط دفاع الاعدآء وهو سور دير العذرآء فاذا تمكنا من اختراق هذا السور انتهى عملنا وفزنا بالنصر العاجل غير ان الجدران كثيفة لا تؤثر فيها مدافعنا وهي محاطة بالغام يصعب اجتيازها ولكننا علمنا انهُ يوجد في اسفل السور مخازن بارود فاذا تمكنا من اشعالها نابت عنا في هدم السور من اساسهِ وفتحت لنا طريقاً لدخول المدينة . ولا اخفي عنك انهُ يوجد لنا صديقٌ في المدينة يدعى هوبرت وعدنا باشعال تلك المخازن ونحن في انتظارهِ منذ يومين والى الآن لم يتمم وعدهُ ولا بلغنا من جهتهِ شيء جديد ولا نستطيع القيام بعملٍ ما قبل ان نعلم ما حل بهِ تماماً . وهذه خريطة المدينة مفصلةً ترى فيها عدة اديار بينها شوارع متفرعة من ساحة عمومية فاذا بلغت تلك الساحة تجد كنيسة الى يمناك على ناحية شارع يدعى توليدو ومتى دخلت ذاك الشارع تجد فيهِ مخزناً للالبسة وبجانبهِ بائع خمر وبينهما بيت صغير يسكنهُ هوبرت . فالذي يُطلب منك الآن هو ان تصل الى البيت المذكور وتقابل هوبرت وتعلم منهُ هل هو باقٍ على وعدهِ او لا . وقد احضرنا لك هذا اللباس وهو لباس راهب فرنسيسكاني فستراهُ احسن طريقة تتنكر بها فلا يشك فيك احد

اما انا فكنت اسمع باصغآء وسرور حتى سمعت كلمة التنكر فانقلبت سحنتي وقلت كلا يا مولاي لا اتنكر لانني لست جاسوساً ولكن اذهب بلباسي العسكري .

فقال ضاحكاً اعلم يا هذا انهُ يستحيل عليك اجتياز شوارع المدينة بغير تنكر لان الاسبانيول لا يرضون لاسراهم بالاسر فقط بل يذيقونهم اصناف البلآء والتنكيل حالما يقبضون عليهم . وبعد مباحثة قليلة اقنعني الجنرال فلبست ثياب الراهب وقلت له هاءنذا مستعدٌّ للرحيل . قال وهل معك سلاح . قلت معي سيفي . قال ربما سمعوا قعقعتهُ او رأوهُ فاتركهُ واستعض عنهُ بهذا الخنجر وستقابل حال خروجك جنديًّا يريك الطريق التي تسير فيها لتبلغ السور بدون تأخير فاذهب مزوداً بدعآئنا ان ينجح الله مسعاك

فخرجت وقابلت الجندي ثم نزعت قبعتي واخفيت رأسي تحت قبعة ثوب الراهب وحبكت ازرارهُ وسرت ورآء قائدي بحذر وانتباه . ولم نزل ننسلّ بين الخرَب على جانب السور الى ان بلغنا شجرة كبيرة محاذيةً لهُ فوقف الدليل وقال تسلق هذه الشجرة ايها الرفيق ومتى بلغت اعلاها تجد غصناً اذا تدليت منهُ تبلغ سطح هذا البيت الذي على السور فمتى وصلت اليهِ فاعتمد على ملكك الحارس في ما بقي عليك لانهُ يستحيل عليَّ ان ارافقك اكثر . فلففت ثوبي عليَّ وتسلقت الشجرة حتى قاربت اعلاها ولم يبقَ عليَّ الا خطوة واحدة لابلغ السطح فقرع اذنيَّ صوت وقع اقدام فالتصقت بالغصن واجتهدت ان اخفي نفسي بظلهِ لان القمر كان في ربعهِ الاول ورأيت بعد التحديق رجلاً يقترب على السطح ببطء وحذر وبيدهِ بندقية مصوبة وكان يقف من وقت الى آخر ويصغي بتأنٍّ الى ان بلغ طرف السطح على بعد بضع خطوات مني فرأيتهُ قد جثا ثم صوب بندقيتهُ واطلقها . فمرَّت الرصاصة بالقرب مني ثم سمعت انيناً فعلمت ان الذي اصيب لم يكن الا دليلي وكان قد بقي ليرى ماذا سيحدث لي فرآهُ الحارس ورماهُ بالرصاص . ثم رأيت الحارس يختلس النظر الى اسفل وبعد ان التفت يميناً وشمالاً ولم يرَ احداً وضع بندقيتهُ على الارض واقترب من الشجرة يريد النزول فعلمت انهُ راغبٌ في الوصول الى الدليل اما ليجهز عليهِ او يسلب ما ربما يجدهُ في جيوبهِ . ولكنهُ ما كاد يبلغ الغصن المستند انا عليهِ حتى اغمدت خنجري في صدرهِ فهوى الى الارض وكان لسقوطهِ صوتٌ

عظيم بين الاغصان الملتفة . ومنعني الظلام من مشاهدة ما حصل غير انني سمعت بعض كلمات فرنسوية من دليلي عرفت منها انهُ لم يطل انتظارهُ للانتقام من عدوه . اما انا فبقيت بضع دقائق لا اجسر على الحركة مخافة ان يكون صوت سقوط الحارس قد نبه احداً ولما تيقنت السكون التام وثبت الى سطح البيت واخذت اهتم بوجود طريقةٍ اتمكن بها من الوصول الى داخل المدينة . فخطر لي ان ابحث عن الطريق التي اتى منها الحارس وقبل ان انقل قدمي رأيت باباً خفيًّا اشبه بالفخ قد فتح في سطح البيت وظهر لي منهُ وجه رجل يغطيهِ الشعر الكثيف وكان ينادي الحارس باسم مانولو ولما لم يجبهُ احد صعد الى السطح وتبعهُ ثلاثة مثلهُ وجميعهم مدججون بالسلاح . اما انا فانزويت قرب الحائط حيث يسترني الظلام وجعلت اراقب حركاتهم فبعد ان اعادوا الندآء للحارس ولم يكن مجيب قال احدهم لا بد انهُ ذهب الى المركز الاخر ثم اتجهوا الى تلك الناحية . فما صدقت ان ابتعدوا حتى اقتربت من ذلك الباب بمزيد الاحتراس فوجدت سلماً نزلتهُ وانا اكاد امنع تنفسي فوجدت البيت خالياً خاوياً وبلغت بابهُ فخرجت منهُ الى زقاقٍ مقفرٍ فسرت فيهِ ايضاً حتى بلغت الشارع فرأيت فيهِ نيراناً موقدة وحول كل نار عدداً من الاشخاص يصطلون او يأكلون ووجدت عدداً من الرهبان يجولون بين تلك الجموع . فتشجعت وسرت نظيرهم حتى انتهيت الى الساحة العمومية فوجدتها مكتظة بالجنود وقد كثر في جهاتها ايقاد النيران فلم التفت يميناً ولا شمالاً حتى اجتزت الكنيسة وسرت في الشارع الذي وُصف لي حتى وصلت الى مخزن الالبسة ودكان بائع الخمر ووجدت بينهما البيت الذي قيل لي عنهُ ولكن كان بابهُ مقفلاً ولا نور فيهِ . فدفعت الباب بلطفٍ واحتراسٍ زائد فانفتح ولم اكن اعلم ما سأصادفهُ فيهِ غير انهُ لم يكن لي بد من دخولهِ فخاطرت بنفسي ودخلت . وكانت تخيم في الداخل ظلمة حالكة السواد زادت عند ما اقفلت الباب ورآئي فجعلت اتلمس طريقي حتى وقعت يدي على طرف مائدة فاستندت اليها واخذت اناجي نفسي في كيفية الوصول الى مقابلة هوبرت لانني علمت ان اقل غلطةٍ ارتكبها يكون فيها خسارة حياتي

وضياع المقصود من رسالتي . واذ ذاك سمعتُ صوتاً بالقرب مني يقول بتنهدٍ يجرح الفؤاد « آه يا الهي » فجمد الدم في عروقي ولا سيما وان تلك الكلمات قيلت باللغة الفرنسوية فاستنجدت قواي وهمستُ في الظلام قائلاً مَن انت يا هذا ألعلك هو برت . فاجاب بصوت ضعيف نعم انا هو فالمآء المآء بربك هات لي قليلاً من المآء . واقتربت من الجهة التي اتى منها الصوت فبلغت الحائط ولم اعثر على احد . ثم انتبهت الى تنهدٍ ثانٍ منهُ فتحققت ان الصوت فوق رأسي فرفعت يدي واخذت اتلمس في الظلمة حتى وقعت يدي على رجلٍ عارية على علوٍ يوازي قامتي . فوقف شعر رأسي واخرجت من جيبي ثقاباً اوقدتهُ فوقعت عيني على منظر ارعد فرائصي وسقط الثقاب الى الارض فانطفأ . وبعد قليل ملكت روعي فاوقدت ثقاباً آخر وتأملت في المسكين هو برت وكان مسمَّراً على الحائط كما تسمر التماسيح على ابواب البيوت وقد أُدخلت شظايا الحديد الثخين في يديهِ ورجليهِ وكان على آخر رمق فسقط رأسهُ على كتفهِ . وكان المهُ من العطش اكثر من تألمهِ من الجراح ولزيادة عذابهِ وضع اولئك القساة زجاجة خمر على المائدة امامهُ وهو على تلك الحال فتناولتها الفوري وجرّعتهُ منها بقدر استطاعتهِ فعاد الى عينيهِ شيء من النور وتمكن من الكلام فقال هل انت فرنسوي . قلت نعم وموفدٌ للسؤال عنك والبحث عما جرى لك . فقال بتأسفٍ قد انكشف امري لاولئك الملاعين ففعلوا بي ما ترى ولكن اسمع لاخبرك قبل انقضآء اجلي بما تهمك معرفتهُ . ان البارود مخزون في غرفة رئيسة دير الراهبات غير ان الجدار مثقوب وتتصل نهايتهُ بغرفة الاخت أنجلا قرب الكنيسة . والآن فان آلامي لا تطاق ولا امل في نجاتي فارغب اليك بل استحلفك ان تغمد خنجرك في صدري وتريحني من هذا العذاب

ورأيت المسكين حقيقةً في النزع الاخير وان احسن ما يفعل لهُ هو تقصير مدة آلامهِ فوددت ان اجيب طلبهُ فلم تطاوعني يدي ثم تذكرت زجاجة السم التي اعطانيها المارشال لانّ فأخذتها للحال وافرغت منها شيئاً في قدح الخمر وقبل ان اناولهُ للمسكين هو برت سمعت قعقعة سلاح خارج الغرفة فتركت القدح ووثبت

الى نافذة في الغرفة مغطاة بالستائر الثقيلة فاختفيت ورآءها . وفي اللحظة التالية دخل جنديان من الاسبانيول ببنادقهما وبيد احدهما مصباح . وكنت اراقبهما من خلل الستائر فلاحظت انهما اتيا ليجهزا على المسكين أو ليزيدا في آلامهِ فكانا ينظران اليهِ ويتبسمان تبسماً شيطانيًّا . ثم وقع نظر احدهما على قدح الخمر فأخذهُ بيدهِ وقدمهُ الى هوبرت فمد ذاك رأسهُ ليبتلع منهُ شيئاً فاعادهُ الجندي اليهِ ساخراً بهِ وابتلع منه قليلاً فما استقر في جوفهِ المشروب حتى صرخ صراخاً شديداً وتشنجت اعصابهُ فسقط الى الارض ميتاً . ورأى رفيقهُ ذلك فكاد يموت معهُ من الخوف واصابتهُ نوبة جنون فكان يصرخ ويجري حتى خرج لا يلوي على شيء . وخرجت من مخبإي على نور المصباح الذي تركهُ الجنديان فوجدت ان هوبرت ايضاً قد فاضت روحهُ فخرجت الى الشارع وانا كالمأخوذ فلم انتبه الى نفسي حتى قرعت ساعة الكنيسة ضربتين فعلمت اني بجانبها وانهُ لم يبقَ لي الا ساعتان للعمل

وكانت الكنيسة منارة وفيها جموع تدخل وتخرج فدخلت عالماً ان لا احد ينتبه اليَّ فأنفرد هناك لاجمع قواي العقلية وابتصر في ما يجب عملهُ . ولما دخلت وجدت أن الكنيسة قد تحولت الى مستشفى ملآن بالجرحى والمرضى وكلٌّ مشغول بنفسهِ ورأيت البعض جاثين يصلون فجثوت بالقرب منهم وتضرعت الى القادر على كل شيء ان يقويني على القيام بما فرض عليَّ لكي اشهر اسمي في اسبانيا كما اشتهر في المانيا . وبقيت على تلك الحالة الى ان قرعت الساعة ثلاثاً فخرجت وتوجهت الى دير الراهبات . وكان يمكنني الرجوع الى المعسكر لأعلم المارشال ان هوبرت قد مات واتركهُ يفكر في طريقة اخرى لافتتاح المدينة ولكن جيرار لا يقف عند الخطر ولا يترك عملاً قبل اتمامهِ فصممت ان اقوم انا بما نوى هوبرت ان يقوم بهِ

وسرت بدون معارضة حتى بلغت الدير وكان مبنيًّا في وسط حديقة فسيحة ملأى بالجنود المسلحين ولديهم آلات الدفاع بتمامها ولذلك لم يكن دخول الدير بالامر السهل فسرت حول الحديقة حتى بلغت نافذةً زجاجها ملوَّن وعليها رسوم علمت للحال انها نافذة الكنيسة . وكنت قد علمت من هوبرت ان غرفة الرئيسة

المخزون فيها البارود بقرب الكنيسةوان الثقب الممكن الوصول منهُ في الغرفة المحاذية فصار من اللازم ان ادخل الدير باية طريقـة كانت . ورأيت حارساً على الباب فعلمت انه لا بد ان يسألني عن غرضي من الدخول ثم وقع نظري على بئر في وسط الحديقة و بقربها دلآء فاسرعت وملأت منها دلوين حملتهما بيديَّ ودخلت بشجاعةٍ فلم يكلمني الحارس وفتح لي طريقاً سرت فيـهِ في دار مبلطة متجهاً نحو الكنيسة . ولما بلغت آخر الممرّ رأيت غرفةً عرفتها انها مخزن البارود لاني رأيت امام بابها كمية من البارود مبعثرة على الارض . اما الباب فكان مغلقاً وعليهِ اثنان يحرسانهِ شرسا الهيئة لم ارَ افظع من منظرهما . وتقدمت الى الامام فرأيت غرفة اخرى ظننتها غرفة الراهبة أنجلا ووجدت بابها مفتوحاً فتركت الدلوين على الارض ودخلت الغرفة فرأيت في صدرها مذبحاً قد جثت امامهُ ثلاث من الراهبات . فلما شعرنَ بدخولي نهضنَ ونظرن اليَّ كمن يطلب الايضاح . ولم تفارقني سرعة الخاطر قطّ فخطر لي ان هؤلآء لم يتركنَ الدير مع ما هو فيه من الخطر الشديد الا لانهنَّ مأمورات وانهنَّ ينتظرنَ امراً ليخرجنَ فاشرت اليهنَّ ان يتبعنني وسرت امامهن الى جهة الباب . اما الرئيسة فحاولت ان تستوضح الامر ببعض الاسئلة فلم اجبها واظهرت علامات الضجر والقلق واشرت اليهنَّ ثانيةً بوجوب الاسراع في اتباعي . ولما رأينَ ذلك مني سرنَ في اثري فقدتهنَّ الى الكنيسة الى الجهة القصوى من مخزن البارود وتركتهنَّ امام المذبح وعدت وقلبي يخفق سروراً وقد تحققت نجاح مسعاي وزوال كل ما يمكن ان يعترض في سبيل مقصدي

خذوا ايها الاصحاب هذا الدرس مني واياكم التهاون بأصغر الامور . فانني لما تركت الراهبـات وعدت نظرت فاذا بالرئيسة تتبعني بنظر حادٍ يدل على الشك والظن وتتبعت نظرها فرأيتها تنقـلهُ من قطرتي دم كانتا على يدي اليمنى من دم الحارس الذي طعنتهُ في الشجرة الى خاتم ثمين كان في يدي اليسرى وكانت القوانين تقضي بأن لا يلبس الرهبان شيئاً من الحلى . ولم يخفَ عليَّ ظن الرئيسة ولا سيما عند ما رأيتها تتبعني فأسرعت ركضاً الى ان بلغت باب الكنيسة وولجت منهُ

الممرّ فلما لم تستطع اللحاق بي صاحت بالحرس فهبوا على صوتها ولما رأيتهم جعلت اصيح مثلها واشير الى ممرٍّ آخر ولم اترك لهم فرصةً للاستفهام فاندفعوا بأجمعهم الى ذلك الممرّ واغتنمت الفرصة فدخلت الغرفة واقفلت بابها من الداخل وقد اصبحت في حصن منيع . وحاول القوم فتح الباب بعد ان اخبرتهم رئيسة الدير بظنها بي فلم يستطيعوا واطلق بعضهم بنادقهم على الباب فاخترقهُ الرصاص ولكن بدون جدوى . اما انا فكان اهتمامي بالاهتدآء الى الثقب الذي قال لي عنهُ هوبرت وكنت قد فهمت منهُ ان في هذا الثقب باروداً يتصل بشكل خيطٍ دقيق حتى يصل الى مخزن البارود فاذا اشعل اتصلت النار بالمخزن وانفجر . فبحثت في الغرفة وزواياها فلم اعثر على شيء وكاد يدركني اليأس واخيراً حانت مني التفاتة فرأيت تمثالاً لبعض القديسين محاطة قاعدتهُ بالزهور الصناعية فاقتربت منهُ وفرقت تلك الزهور ولا تسلوا عن سروري حين رأيت البارود مذروراً شبه خيط دقيق الى ان يبلغ ثقباً ورآء التمثال وبأسرع من لمح البصر تناولت شمعةً موقدة كانت امام التمثال فأدنيتها من البارود والقيت بنفسي الى الارض . فلم تكن لحظةٌ حتى سمعت قصفاً كقصف الرعود وشعرت بارتجاج الجدران وسقوط السقف وبلغ اذني بعد هنيهةٍ عويل الاسبانيول وهتاف الجيوش الفرنسوية ثم غبت عن الوجود

. . . .

ولما افقت وجدت نفسي بين جنديين فرنسويين يعتنيان بي فشددت عزيمتي ولم اكن اصدق اني لا ازال حيًّا . وقد وجدت ان انفجار البارود لم يؤثر كثيراً في جدران الدير الضخمة بل زعزعها واوقع شيئاً منها ومن السقوف فقط غير ان هول الانفجار ألقى الرعب في قلوب الاسبانيول فتركوا اماكنهم ولاذوا بالفرار ودخلت جيوشنا الفرنسوية بدون مقاومة تذكر . ثم سرت مع رفيقيَّ ولما بلغت باب الدير وجدت المارشال لانّ داخلاً فصافحني بسرور وسمع حديثي باصغآء واعجاب فلما انتهيت قال احسنت يا جيرار وسأخبر الامبراطور بكل ذلك . قلت لا تنسَ يا مولاي انني لم اقم الا باتمام ما بدأ بهِ هوبرت . قال وسوف لا ننسى جميل هذا

الرجل الذي مات من اجل فرنسا . والآن فانك لا بد ان تكون جائعاً وسأتناول طعام الصباح مع اركان حربي في ساحة المدينة فادعوك لتشرفنا بحضورك . قلت اشكرك يا مولاي لكن ارجو ان تسمح لي بغيبة قصيرة ثم اتبعك . قال وما يمنعك من اتباعي الان . قلت لا بد لي من مقابلة ضباط فرقتي الساعة وسأتبعك حالاً بعد مشاهدتهم . قال حسنٌ فلا تطل الغياب . وما سمعت كلمتهُ هذه حتى اسرعت فخرجت من باب السور وتوجهت توًّا الى غرفتي في الفرقة فنزعت ثوب الراهب وامتشقت سيفي واسرعت كما انا الى المحل المعين للمبارزة فوجدت الاثني عشر ضابطاً بانتظاري وقد وقفوا صفًّا واحداً . فلما اقتربت منهم ورأوا وجهي المسودّ من دخان البارود والدمآء التي سالت من بعض جراح خفيفة في وجهي وجسمي لا شك انهم ندموا على تصرفهم في الليلة السابقة . اما انا فالقيت عليهم السلام واعتذرت عن تأخري بضع دقائق بحكم الوقت والمهمة التي قضيتها ورأيت انهم يخفون عني شيئاً لم اعرفهُ . ثم قلت لهم انني اتوسل اليكم ان تمنحوني طلبةً واحدة لانني لا اقدر ان اتأخر كثيراً فقد دعاني المارشال لتناول الطعام معهُ فلا ينبغي ان ينتظرني كثيراً . فقال اوليڤياي وما الذي تطلبهُ . قلت كنت وعدتكم ان اخصص خمس دقائق لمبارزة كل منكم اما الان فاودّ ان تلقوني جميعاً دفعةً واحدة . ولما قلت هذا اخذت موقف الدفاع ورفعت سيفي منتظراً هجومهم . ولكن ما كان اشد تلك الساعة على عواطفي لانني رأيتهم عوضاً عن مهاجمتي قد وقفوا الوقفة العسكرية وبصوتٍ واحد اخرجوا سيوفهم ورفعوها لي امام وجوههم بالتحية العسكرية . فلما رأيت ذلك رجعت خطوتين الى الورآء مدهوشاً وانا لا اكاد اصدق نظري ثم رميت سيفي الى الارض وقلت ايها الرفاق الاعزآء . . . . ومنعتني عبرات التأثر عن اتمام الكلام . فوثب اوليڤياي وصافحني وضمني الى صدرهِ ثم هجم الباقون فاخذ بعضهم رأسي وغيرهُ يدي فما كنت ارى الا وجوهاً تنظر اليَّ بحبٍ واعجاب وألسنة تعتذر اليَّ وتشكرني وهكذا كان دخولي في فرقة الهوسار وامتلاكي قلوب رجالها